بين علم النحو و البلاغة

د. محمد موسوني
جامعة أبي بكر بلقايد ــ تلمسان

بدأت الدراسات العربية بداية متداخلة و " لما كان القرآن الكريم هو الحافز الأكبر لنشأة هذه الدراسات عموما كان من الطبيعي أن تنشأ مختلطة متداخلة، و من الطبيعي أيضا أن يكون أوائل المتصدين لهذه الدراسات ذوي اختصاصات متعددة"[1] .

و لا شك في أن المتتبع لكتب العربية التراثية[2] يجد اللغويين قد عنوا ببحث الألفاظ و دلالتها، و باللغة و قواعد بيانها، كما عرضوا لما في النصوص الأدبية من

---

[1] محمد حسين آل ياسين، الدراسات اللغوية عند العرب إلى نهاية القرن الثالث ، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت ، 1980 ، ص 78.

[2] من أبرز الكتب التي تتسم بالتداخل بين العلوم العربية :

ــ " الكتاب " ، و إن طارت شهرته بالدرس النحوي و الصرفي فإن صاحبه يجمع فيه مقاييس العربية لفظا ومعنى .

بلاغة عند شرحها، و الرواة نقلوا أحاديث الأدب و تحدثوا عن الاستعمالات المختلفة للكلمات[1].

و نشير أن ظاهرة الاختلاط والتداخل بين الدراسات العربية "ظلت تساير التأليف في اللغة حتى بعد ظهور معجمات الألفاظ و المعاني، و لم تختف في وقت

- " البيان و التبيين " ويعد أوفى كتب الجاحظ التي عرض فيها للحديث عن الأدب و النقد الشعري ، و عن البيان و البلاغة .
- " الكامل" و يقول صاحبه عنه وهذا كتاب ألفناه يجمع ضروبا من الآداب ما بين كلام منثور وشعر مرصوف و مثل سائر و موعظة بالغة و اختيار خطبة شريفة و رسالة بليغة ، و النية فيه أن نفسر كل ما وقع في هذا الكتاب من كلام غريب أو معنى مستغلق ، و أن نشرح ما يعرض فيه من الإعراب شرحا شافيا حتى يكون هذا الكتاب بنفسه مكتفيا ، و عن أن يرجع إلى أحد في تفسيره مستغنيا ، أنظر : المبرد ، الكامل ، تحقيق محمد أحمد الدالي ج1 مؤسسة الرسالة بيروت ، 1986 م ، ص، 1-2
- " الخصائص " لقد تناول " ابن جني " في أبوابه 162 ، جميع ما يتعلق باللغة العربية " فهو زاد العربية و أس من أسسها العامة ، يحوي معارف العربية العامة و الخاصة " كما يقول " بلعيد صالح " ، مصادر اللغة -- ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1994،ص، 148.
- " أسرار البلاغة " و " دلائل الإعجاز " ذهب الجرجاني في كتابيه " أسرار البلاغة " و " دلائل الإعجاز" إلى الكشف على وجوه الحسن في الكلام ، و هذا عن طريق معرفة قوانين : النحو و المعاني و البيان " فالكلام عند عبد القاهر ثلاثة منازل : لفظ استقل بجماله و استغنى بحسنه ... دون أن يكون للنظم حساب فيه ، و نظم اعتمد على ترتيب المعاني ، و تآخي الأفكار دون أن يسانده التأنق في اللفظ . و كلام حوى الحسن من طرفيه .. فجمع إلى جمال اللفظ و إشراف العبارة ، تساوق المعنى و تلاحم الفكرة ... و من جهته يكون الإعجاز " انظر عبد الكريم الخطيب ، إعجاز القرى، الإعجاز في دراسات السابقين ، دار الفكر ، ط1 1974، ص، 274.

[1] عبد العزيز عتيق – في تاريخ البلاغة العربية – دار النهضة العربية للطباعة و النشر – بيروت ، دت ، ص، 33.

ما، إذا إستمرت إلى نهاية القرن الثالث ... بل ظلت هذه الظاهرة حية إلى القرون المتأخرة القريبة من عصرنا"[1]. و بخاصة الدرس البلاغي و علاقته بالدرس النحوي، حيث بقيت جهود البلاغيين مقصورة على قواعد التوجيه النحوي المنصبة على الطريقة الخاصة في ترتيب المعاني و أدائها، و ظل الدارسون يعالجون للجملة العربي جانبين أساسيين أحدهما يتعلق باللفظ و الآخر يتعلق بالغرض[2].

فعلى مستوى اللفظ و بالنظر إلى علاقة الركنين المسند و المسند إليه يتحقق نوعان من الجمل :

-جملة اسمية و يتصدر ركنها الأول الاسم و يليه الخبر ، و من فروعها الجملة التي تبتدئ بالحروف المشبهة بالفعل[3].

---

[1] محمد حسين آل ياسين، الدراسات اللغوية عند العرب إلى نهاية القرن الثالث، ص 102.

[2] أسعد أحمد ، و فكتور الكك ، صناعة الكتابة (ألحق به التلخيص للقزويني) دار السؤال ، دمشق ط4 ، 1401ه /1981 م ، ص 213-214.

[3] الحروف المشبهة بالفعل يجمعها قول ابن مالك :

لإنّ ، أنّ، ليت ، لكنّ ، لعلّ كأنّ عكس ما لكان من عمل

و قد عدها صاحب " الكتاب " خمسة و هي :

إنّ ، و لكنّ ، و ليتَ ، ، و لَعلّ ، و كأنّ ، و قد أسقط (انّ) المفتوحة معتبرا اصلها " إنّ " المكسورة ، والأصح عند ابن مالك أنها فرع عن " إنّ " المكسورة .

انظر : سيبويه الكتاب ، تحقيق عبد السلام هارون ، ج2 دار الجيل ، دت، ص 131- 140. ابن عقيل . شرح ابن عقيل ج1 ، دار اللغات ، ط14 1964 ص 345-346. ابن الناظم . شرح ألفية ابن مالك ، تحقيق الشواهد ، عبد الحميد السيد محمد عبد الحميد دار الجيل بيروت د.ت ، ص 161-162. ابن هاشم – مغني اللبيب، عن كتب الأعاريب ، تحقيق ، ح الفاخوري ، دار الجيل بيروت، 1991م، ج1، ص 75-76

.

و"الجملة الفعلية تفيد التجدد و الحدوث، و الجملة الإسمية تفيد الثبوت والاستقرار، و لكل منهما مكان لا يصلح للآخر، و البلاغة الحقة تكون في اختيار الجملة الخاصة للمعنى الخاص – انظر قصة ابراهيم عليه السلام حين دخلت عليه الملائكة و حيته فرد عليها بخير من تحيتها، فحياها بجملة اسمية، و لقد عرض القرآن الكريم بأسلوبه التحيتين في قوله تعالى : " و لقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاما قال سلام " (هود : 69) فأصل سلام الملائكة تسلم عليك سلاما وتقدير إبراهيم سلام عليكم "[1].

و الجملة بنوعيها الفعلية و الإسمية قلما تقتصر على الركنين، المسند والمسند إليه، بل تستعين بالمتممات كالمفاعيل، و التوابع، وشبه الجملة و أنواع الحروف [2].

أما على مستوى الغرض فيوجد – أيضا – نوعان للجملة، الجملة الخبرية و ضروبها[3] و الجملة الإنشائية و أقسامها[4] . و هما ألصق بعلم المعاني.

---

[1] اسعد احمد، و فكتور الكك ، صناعة الكتابة ، ص 213–214.

[2] بكري شيخ أمين، التعبير الفني في القرآن ، دار الشروق، بيروت ، ط4 ،1980، ص 189.

[3] أسعد أحمد، و فكتور الكك ، صناعة الكتابة – ص 214.

[4] يرى القزويني، انه " إذا كان غرض المخبر بخبره إفادة المخاطب أحد الأمرين فينبغي أن يقتصر من التركيب على قدر الحاجة :

أ– فإذا كان المخاطب خالد الذهن من الحكم بأحد طرفي الخبر على الآخر ، و التردد استغنى عن مؤكدات الحكم كقولك : " جاء زيد ، و عمر ذاهب " فيتمكن في ذهنه لمصادقته إياه خاليا .

ب– و إن كان متصور الطرفين ، مترددا في إسناد أحدهما إلى الآخر طالبا له حسن تقويته بمؤكد كقولك : " لزيد عارف " أو " إن زيدا عارفا " .

و دراسة الإسناد من حيث الحقيقة و المجاز، و بأي من العلاقتين بين ركنية (التشبيهية أو غير التشبيهية) يضطلع به علم البيان. بينما تبرز العلاقة غير التشبيهية للإسناد بصورها المتنوعة الجانب التحسيني للجملة العربية على المستويين اللفظي و المعنوي[1].

و إذا حاولنا متابعة الأسباب و العوامل التي أدت إلى ظهور هذه العلوم الثلاثة، أو كما تسمى (علم الجمال اللغوي) فسينتهي بنا هذا التتبع " إلى أن الباعث الأول على النظر فيها ليس إلا الوصول إلى ضروب الجمال المعجز التي نزل النص القرآني عارضا لها و لاقتا إليها "[2].

و نشير إلى أن البلاغة تمثل العلاقة بين مستويي النحو[3] و المعنى[1] فهي تركز عليهما في تسجيل وجودها، و في ضوء الوظيفة التكاملية بينهما تتحقق وظيفتها

ج- و إن كان حاكما بخلافه وجب توكيده بحسب الإنكار ، فتقول : " إني صادق " لمن ينكر صدقك ، و لا يبالغ في إنكاره ، " و إني لصادق " لمن يبالغ في إنكاره " انظر : القزويني الإيضاح في علوم البلاغة ، ج1 دار الكتاب اللبناني ، ط3 ، 1971 ، ص، 92-93 .

[1] الإنشـــاء عـــند الخطيب القزويني طلب و غير طلب ، و " الطلب يستدعي مطلوبا غير حاصل وقت لامتناع تحصيل الحاصل " ، الإيضاح : 227/1 .

و الطلـــب يكون بارتباط شيء ، و هو نوعان : طلب بالفعل ، و طلب بالحروف ، أما غير الطلب ، فيوضح مـــن خلال تعبير جملته عن مدح ، أو ذم ، أو شكر ، أو لعن ، أو شتم ، أو تفاؤل ، أو قسم ، أو حكم من الأحكـــام ، أو عقد ، أو إيجاب ، أو قبول ، انظر : المخزومي مهدي ، في النحو العربي ، قواعد و تطبيق، دار الرائد العربي ، بيروت ، ط2 ،1986 ، ص، 165-168 .

[2] صناعة الكتابة ، ص، 215-216 .

[3] الســـيد أحمد خليل، المدخل إلى دراسة البلاغة العربية . دار النهضة العربية للطباعة و النشر ، بيروت لبنان، 1968 ، ص، 13

فخواص " تركيب الكلام تقدمها الإحاطة بمطالب النحو في تصريف أبوابه بحسب ما يقتضيه المعنى، و هذا هو توخي المعاني النحوية ...فالصلة بين علمي النحو والمعاني لا تحتاج إلى إقامة الدليل لأنها صلة طبيعية، و الشركة بين العلمين هي خدمة المعنى و تأديته[2] .

و تبقى هذه الصلة توضحها طبيعة الدراسة التي تنطلق من عناصر الجملة إلى الجملة الواحدة، و إلى الجمل فيما بينها، حيث يقوم علم النحو ببحث الأبواب و معانيها، بينما يهتم علم المعاني بأحوال الكلام[3]، على مختلف هيئاته

---

[1] يشير أحمد سليمان ياقوت – ظاهرة الإعراب في النحو العربي و تطبيقها في القرآن الكريم، جامعة الرياض، 1981 ، و ديوان المطبوعات الجزائرية 1983 ، ص 263 إلى أن اللغويين المحدثين قد تعارفوا على أن " علم النحو يشمل نوعين من الدراسة : عمل الصيغ Morphologie و هو ما يعرف الآن بالصرف و يبحث في دراسة الوحدات الصرفية ، و الصيغ اللغوية ، و علم التراكيب أو النظم (Syntaxe) و يبحث في الطرق التي تتألف منها الجمل ، و يبحث أيضا في قوانين المطابقة (مفرد أو مثنى أو جمع) ، و النوع (مذكر أو مؤنث) كذلك يبحث هذا العلم في الإعراب و قوانينه ، و من هذين العلمين معا ينتج لنا ما يعرف باسم الفصائل النحوية (GR cetegarie) كفصيلة العدد ، و الجنس و التعريف و التنكير ، و فصيلة الاشتقاق كاسم الفاعل أو اسم المفعول. و فصيلة التوابع ، و فصيلة المعاني الوظيفية كالفاعلية و المفعولية و الإضافة و الاسناد، هذه الفصائل جميعها فما ما يدل عليها في الجملة .

[2] يعرف السكاكي علم المعاني بأنه : " هو تتبع خواص تركيب الكلام في الإفادة و ما يتصل بها من الاستحسان ، و غيره ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام في الإفادة و ما يقتضي الحال ذكره "

انظر : السكاكي ، مفتاح العلوم ، دار الكتب العلمية ، بيروت، د.ت.ص، 70 ، و يعرفه الخطيب القزويني بأنه " علم يعرف به أحوال اللفظ العربي التي بها يطابق مقتضى الحال "

انظر : الإيضاح في علوم البلاغة ، ج1 ، ص،84

[3] الطاهر قطيي ، بحوث في اللغة – الاستفهام بين النحو و البلاغة . دراسة مقارنة، القسم الثالث ، ديوان المطبوعات الجامعية ، ط2 : 1994 ، ص، 4-5 .

التركيبية و أنه " إذا كانت الشركة في دراسة الجملة قائمة بين علم النحو و علم المعاني، فإن النحو يبدأ بالمفردات و ينتهي إلى الجملة الواحدة على حين يبدأ علم المعاني بالجملة الواحدة و قد يتخطاها إلى علاقتها بالجمل الأخرى في السياق التي هي فيه "[1].

و ينحصر على المعاني في ثمانية أبواب هي : أحوال الإسناد الخبري ، و أحوال المسند إليه ، و أحوال المسند، و أحوال متعلقات الفعل ، و القصر ، و الإنشاء ، و الفصل و الإيجاز، و الإطناب ، و المساواة.
انظر : الإيضاح ، 1/84-85 .

[1] يعرف الزمخشري في مفصله " الكلام " : " الكلام هو المركب من كلمتين أسندت إحداهما إلى الأخرى، و ذلك لا يتأتى إلا في اسمين ، كقولك : زيد أخوك ، و بشر صاحبك ، أو في فعل و اسم نحو قولك : ضرب زيد ، و انطلق بكر ، ويُسمّى الجملة " أي : أن الكلام عنده يسمى : الجملة ، ينظر : الزمخشري . المفصل في علم العربية – دار الجيل بيروت ، (د ت) 6 و بذيله : كتاب المفصل في شرح أبيات المفصل – للسيد محمد بدر الدين أبي فراس النعساني الحلبي .

- أما الكلام عند " ابن هشام " فهو " القول المفيد بالقصد " و هو أخص من الجملة " إذ شرطه الإفادة بخلافهما و لهذا تسمعهم يقولون : جملة الشرط ، جملة الجواب ، جملة الصلة ، و كل ذلك ليس مفيدا فليس بكلام " المغني 2/05 .
- و قد حقق " السيوطي " الموضوع السابق و علق عليه بقوله : " و أما إطلاق الجملة على ما ذكر من الواقعة شرطا أو جوابا أو صلة فإطلاق مجازي ، لأن كلا منهما كان جملة قبل فأطلقت الجملة عليه باعتبار ما كان كإطلاق اليتامى على البالغين لأنهم كانوا كذلك "

ينظر : السيوطي ، جلال الدين ، همع الهمع شرح جمع الجوامع في علم العربية – ج1 مكتبة الكليات الأزهرية القاهرة ط1 ،1986 م ، ص، 13 – 14 .

لقد قسم " محمد إبراهيم عبادة " : الجملة العربية دراسة لغوية نحوية " إلى ستة أنواع ، وجاء هذا التقسيم بناءً على الهيئات التركيبية للكلام و هي كما يلي :

أ- الجملة البسيطة : و هي ذات المركب الإسناد الواحد دون امتداد .

و لإيضاح هذه الصلة –أكثر– بين علمي النحو و علاقتها بعلم البلاغة نعتقد أن مرد الإعجاز في النظم القرآني يرجع إلى ما حظي به من بلاغة كلامية تتمثل في مطابقة اللفظ للمعنى، "فبمقدار ما يتم من التطابق الدقيق بين المعنى القائم في الذهن و اللفظ الدال عليه و المصور له يوصف الكلام بالبلاغة و البيان"[1] .

و عليه، فإن من يقرأ كلام عبد القاهر و هو يتحدث عن النظم " يدرك أنه يريد بالنظم تلاؤم المعاني في الكلمات المفردة تلاؤما يساعد على أداء المعنى

ب– الجملة الممتدة و هي الجملة البسيطة المشتملة على امتدادات و متعلقات غير اسنادية لأحد عنصري الجملة البسيطة .

ج– الجملة المزدوجة أو المتعددة و هي التي اشتملت على أكثر من مركب إسنادي ، و يمثل كل مركب وحدة مستقلة ليس مرتبة على غيرها .

د – الجملة المركبة و هي المشتملة على مركبين اسنادين رئيسين ، لا يستقل أحدهما بنفسه بل هو مترتب على غيره و متوقف عليه مثل : الجملة القسمية ،و الجملة الشرط ...

ه – الجملة المتداخلة و تشمل على مركبين اسناديين أو أكثر– يكون أحدهما عنصرا من مكونات مركب آخر .

و – الجملة المتشابكة و تشمل على أكثر من مركب إسنادي ، ينظر : محمد إبراهيم عبادة ، الجملة العربية دراسة لغوية نحوية منشأة المعارف ، الإسكندرية 1988 ص 209–210 .

و يرى " مهدي المخزومي " أنه " ينبغي أن يستند تقسيم الجملة إلى المسند لا إلى المسند إليه ، كما فعلوا، لأن أهمية الخبر أو الحديث إنما تقوم على ما يؤديه المسند من وظيفة ، و على ما للمسند إليه من دلالة " ينظر : مهدي المخزومي ، في النحو العربي قواعد و تطبيق ، ص 86 .

ويرى " ريمون طحان " أن الجملة تدرس " من حيث ترابط مختلف أجزائها بواسطة مميزات الجنس و العدد والشخص و الإعراب ، و من حيث ما يطرأ على أجزائها أثناء التأليف من تقديم و تأخير و ذكر و حذف وإضمار و إظهار ؛ و من حيث تغيرها حسب أحوال الانفعال كالاستفهام و النفي و التوكيد و العرض والتخصيص و التمني و الترجي .. و من كونها بسيطة و مركبة و معقدة " ينظر ريمون طحان – الألسنة العربية – دار الكتاب اللبناني ، ط2 ، 1981 ، ص 24–25 .

[1] تمام حسان ، الأصول ، ص 346 .

العام المقصود في جمال و قوة، و أن هذا التلاؤم إنما يتم بفضل علم النحو "[1]، و في هذا يقول : " و اعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، و تعمل على قوانينه و أصوله ، و تعرف مناهجه التي نهجت، فلا تزيغ عنها، و تحفظ الرسوم التي رسمت فلا تخل بشيء منها "[2].

و نحسب أن النظم هو ترتيب للمعاني ترتيبا يساير الألفاظ و العبارات في ضوء ما يتمخض عن الدراسة النحوية ؛ و النحو عند الجرجاني " هو مناط الصحة و الفساد، و أما النظم فيحكمه الذوق و المران "[3].

أما عن الحدود بين العلمين فهي : " حدود منهجية يتصورها الدارس و لا يعترف بوجودها المنشئ و من ثم فإن هذا التكامل بين العلمين يظل تكاملا موضوعيا، بعيدا عن النص لأنه فهم لهذا النص يؤمن به الدارس النحوي و البلاغي على السواء[4].

و لكي تتخلص البلاغة من طابعها الصناعي، و تقوم بدورها كمنهج نقدي أدبي متكامل لابد من نقد مضمون الكلام و توجيهه " و لكن إذا فهمنا من كلمة " صناعة " الدراسة الشكلية التي تعنى بأشكال المباني فلا بد من اعتراف بأن علوم البلاغة العربية – و ليس علم المعاني فقط – دراسة شكلية، و من ثم تكون

---

[1] محمـــود ، السيد شيخون – الإعجاز في نظر القرآن – مكتبة الكليات الأزهرية ، القاهرة ، 1978، ص 62 .

[2] المرجع نفسه ، ص 37 .

[3] عـــبد القـــادر الجرجاني – دلائل الإعجاز ، تصحيح محمد محمود التركزي الشنقيطي ، تعليق محمد رشيد رضا، دار المعرفة – بيروت ، 1994، ص 70.

[4] الطاهر قطبي ، بحوث في اللغة ، الإستفهام بين النحو و البلاغة ، دراسة مقارنة ، ص 4 .

البلاغة صناعة كما كان النحو صناعة، و لهذا السبب بالذات لم تقم علوم البلاغة في أية مرحلة من مراحل تاريخها الطويل بدور المنهج النقدي الأدبي المتكامل، لأنها لم تتخط النقد الشكلي إلى نقد المضمون إلا مع الكثير من القصور حتى على مستوى فهم القدماء أنفسهم لفكرة النقد"[1] .

فالمنهج النقدي الأدبي كفيل بتحديد مفهوم البلاغة الذي لا يعد – إطلاقا – إفهاما للمعنى أو تحقيقا للفظ على حساب المعنى أو المعنى على حساب اللفظ بقدر ما هو " إيصال المعنى إلى القلب في حسن الصورة "[2]. و أنه حري بتوضيح العلاقة التكاملية بين علم النحو و علم البلاغة، و أنه في ضوء هذه العلاقة ترتسم المعالم النقدية له .

[1] المرجع نفسه ، ص، 7 .

[2] تمام حسان ، اللغة العربية معناها و مبناها ، دار الثقافة ، الدار البيضاء ، د ت ، ص، 336-337 .